

حياة أعظم الرسل

محمد الكامل

مَحْمَدُ الْكَامِلِ

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَامِلَ الْخُلُقِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ :
" وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " . فَكَانَ
الْمُصْطَفَى عَظِيمًا فِي أَخْلَاقِهِ ، عَظِيمًا فِي
رَحْمَتِهِ عَظِيمًا فِي صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ ، عَظِيمًا
فِي حُبِّهِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ،
وَدِفَاعِهِ عَنْهُمْ ، وَتَفْضِيلِهِمْ عَلَى نَفْسِهِ
وَأَهْلِهِ .

كَانَ عَظِيمًا فِي عِلْمِهِ الْكَثِيرِ ، عَظِيمًا

فِي ذَكَائِهِ النَّادِرِ ، عَظِيمًا فِي إِيمَانِهِ
 الْقَوِيَّ ، وَثِقَتِهِ الْكَامِلَةِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .
 كَانَتْ الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ تُحِبُّهُ ، وَتَثِقُ بِهِ ،
 وَتُصَدِّقُ كُلَّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، كَالسَّيِّدَةِ
 خَدِيجَةَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مِنَ
 الرِّجَالِ ، وَعَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ
 الْغُلَمَانِ .

الرَّسُولُ مَثَلٌ لِلتَّفَاوُلِ :

كَانَ عَظِيمًا فِي تَفَاوُلِهِ ، وَيَنْظُرُ إِلَى
 الْأُمُورِ بِمِنْظَارٍ أَيْبَضَ ، يُؤْمِنُ بِالْفِكْرَةِ ،

وَيَضَعُ الْخُطَّةَ لِتَنْفِيدِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَيُنْظِمُ
عَمَلَهُ تَنْظِيمًا تَامًّا . وَيَارَادَتِهِ الْقَوِيَّةُ ،
وَالِإِيمَانِهِ بِاللَّهِ ، يُنْفِذُ مَشْرُوعَاتِهِ وَهُوَ مُتَفَائِلٌ
كُلَّ التَّفَائُلِ ، وَمُتَأَكِّدٌ كُلَّ التَّأَكُّدِ بِالنَّصْرِ
فِي النَّهَايَةِ .

قَالَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ
بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ (فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ؛
لِحِفْظِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَنْعِ الْأَعْدَاءِ مِنْ
الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ) . فَعَرَضْتُ لَنَا صَخْرَةً فِي
مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ ؛ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا الْفُتُوسُ ،
فَشَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَجَاءَ ثُمَّ نَزَلَ

إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْفَأْسَ ، وَقَالَ بِاسْمِ
 اللَّهِ ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً ، فَكُسِرَ ثُلُثُ
 الْحَجَرِ ، وَقَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ
 مَفَاتِيحَ الشَّامِ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصِرُ (لَأَرَى)
 قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا " . ثُمَّ
 قَالَ : " بِاسْمِ اللَّهِ " ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً
 أُخْرَى ، فَكُسِرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ ، فَقَالَ : اللَّهُ
 أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ (بِلَادِ
 إِيرَانَ) . وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصِرُ الْمَدَائِنَ (مَدِينَةَ
 كِسْرَى قُرْبَ بَغْدَادَ) وَأَبْصِرُ قُصُورَهَا

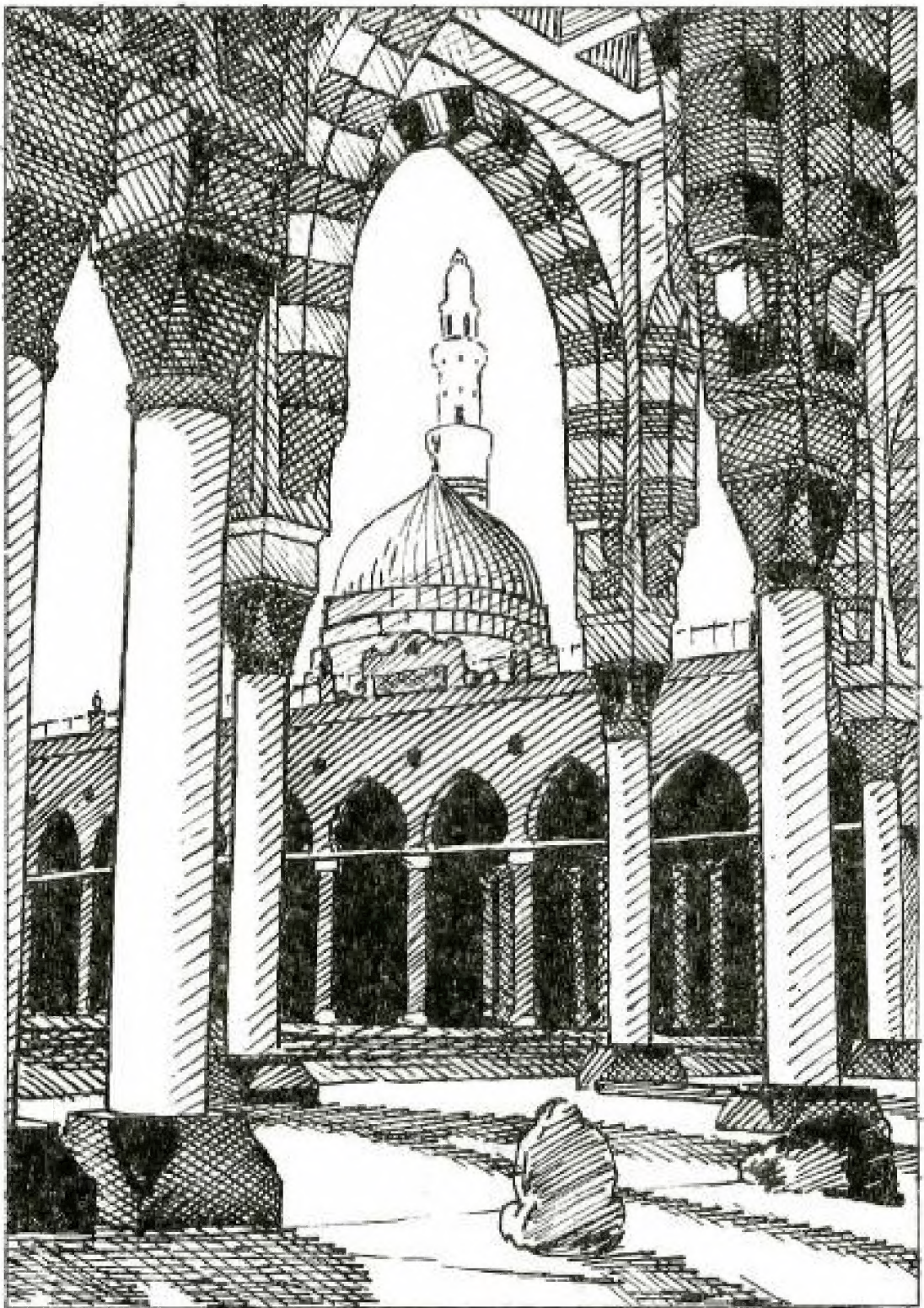
الْأَيْضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا . ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ
 اللَّهِ ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَقُلِعَ بَقِيَّةُ
 الْحَجَرِ . فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُعْطِيتُ
 مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ أَبْوَابَ
 صَنْعَاءَ (عَاصِمَةَ الْيَمَنِ) مِنْ مَكَانِي
 هَذَا .

وَبِهَذَا الْإِيمَانِ ، وَبِالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَنَصْرِهِ ،
 وَرُوحِهِ الْمُتَفَائِلِ ، وَشَخْصِيَّتِهِ الْكَامِلَةِ ،
 وَثَبَاتِهِ النَّادِرِ ، وَمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ
 يَرَى بِهِ مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ .

— اِطْمَأَنَّتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ ،

فَانْتَصَرُوا فِي النُّهَايَةِ ، وَفَتَحُوا الْعَالَمَ
 الْإِسْلَامِيَّ ، وَنَصَرَهُ اللَّهُ نَصْرًا لَا مِثِيلَ لَهُ .
 الرَّسُولُ يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ الْأَسْرَى (١) مِنَ الْأَعْدَاءِ :
 كَانَ مُحَمَّدٌ يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ الْأَسْرَى
 مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَيَرَأْفُ بِهِمْ ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ
 أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ . فَقَدْ كَانَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ
 الطَّائِيُّ نَصْرَانِيًّا يَكْرَهُ الرَّسُولَ كُلَّ الْكُرْهِ ،
 وَهَرَبَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى لَا يُسْلِمَ . وَحَدَّثَ
 أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَسَرَ أُخْتَ عَدِيٍّ
 مَعَ الْأَسْرَى ، وَمَرَّ بِهَا النَّبِيُّ ، فَقَامَتْ

* جَمْعُ أَسِيرٍ ، وَهُوَ مَنْ يُؤْخَذُ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْبِ .



القُبَّةُ الْخَضِرَاءُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ﷺ

إِلَيْهِ، وَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَاتَ الْوَالِدُ ،
وَعَابَ الرَّافِدُ (أَيْ الْمَعْطَى وَالْمُسَاعِدُ وَهُوَ
أَخُوهَا) . فَاْمُنْ عَلَيَّ ، مَنْ اللَّهُ عَلَيْكَ .
(أَيْ أَنْعِمْ عَلَيَّ ، وَخَلِّصْنِي مِنَ الْأَسْرِ) .
ثُمَّ أَعَادَتْ قَوْلَهَا ، فَتَذَكَّرَ النَّبِيُّ مَا كَانَ
لَأَبِيهَا حَاتِمٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْجُودِ
وَالْكَرَمِ ، فَأَمَرَ بِإِعْطَائِهَا الْحُرِّيَّةَ ،
وَكَسَاهَا كِسْوَةً حَسَنَةً ، وَأَعْطَاهَا نَفَقَتَهَا ،
وَأَرْسَلَهَا مُعَزَّزَةً مُكْرَّمَةً مَعَ أَوَّلِ
الْمُسَافِرِينَ إِلَى الشَّامِ . فَلَمَّا قَابَلَتْ أَخَاهَا
عَدِيًّا هُنَاكَ ذَكَرَتْ لَهُ مَا فَعَلَهُ مُحَمَّدٌ

مَعَهَا ، وَمَا أَكْرَمَهَا بِهِ ، وَالطَّرِيقَةَ الَّتِي بِهَا
أَحْسَنَ مُعَامَلَتَهَا .

فَرَجَعَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ إِلَى الرَّسُولِ ،
وَهُوَ مُتَأَثِّرٌ بِنُبْلَاهُ ، وَعَظْفِهِ الْجَمِيلِ ،
وَمُعَامَلَتِهِ الْكَرِيمَةِ لِأُخْتِهِ حِينَمَا كَانَتْ
أَسِيرَةً . ثُمَّ أَسْلَمَ فِي الْحَالِ ، وَانْضَمَّ إِلَى
صُفُوفِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

عَظْمَةُ الْمُصْطَفَى فِي زُهْدِهِ وَقَنَاعَتِهِ :

كَانَ الرَّسُولُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ كَمَا
يَعِيشُ الْمُلُوكُ فِي قُصُورٍ وَاسِعَةٍ ، وَيَحْيَا

حَيَاةٌ يَجِدُ فِيهَا كُلَّ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ
وَالنُّعِيمِ، وَلَكِنَّهُ زَهْدٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ،
وَعَاشَ كَمَا يَعِيشُ الْفُقَرَاءُ . وَكَانَ قُدْوَةً
لِغَيْرِهِ فِي أَنْ يَحْرِمَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ ، وَأَقْرَبَ
النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَيُفَضِّلَ عَلَيْهِمُ الْفُقَرَاءَ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُحْتَاجِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

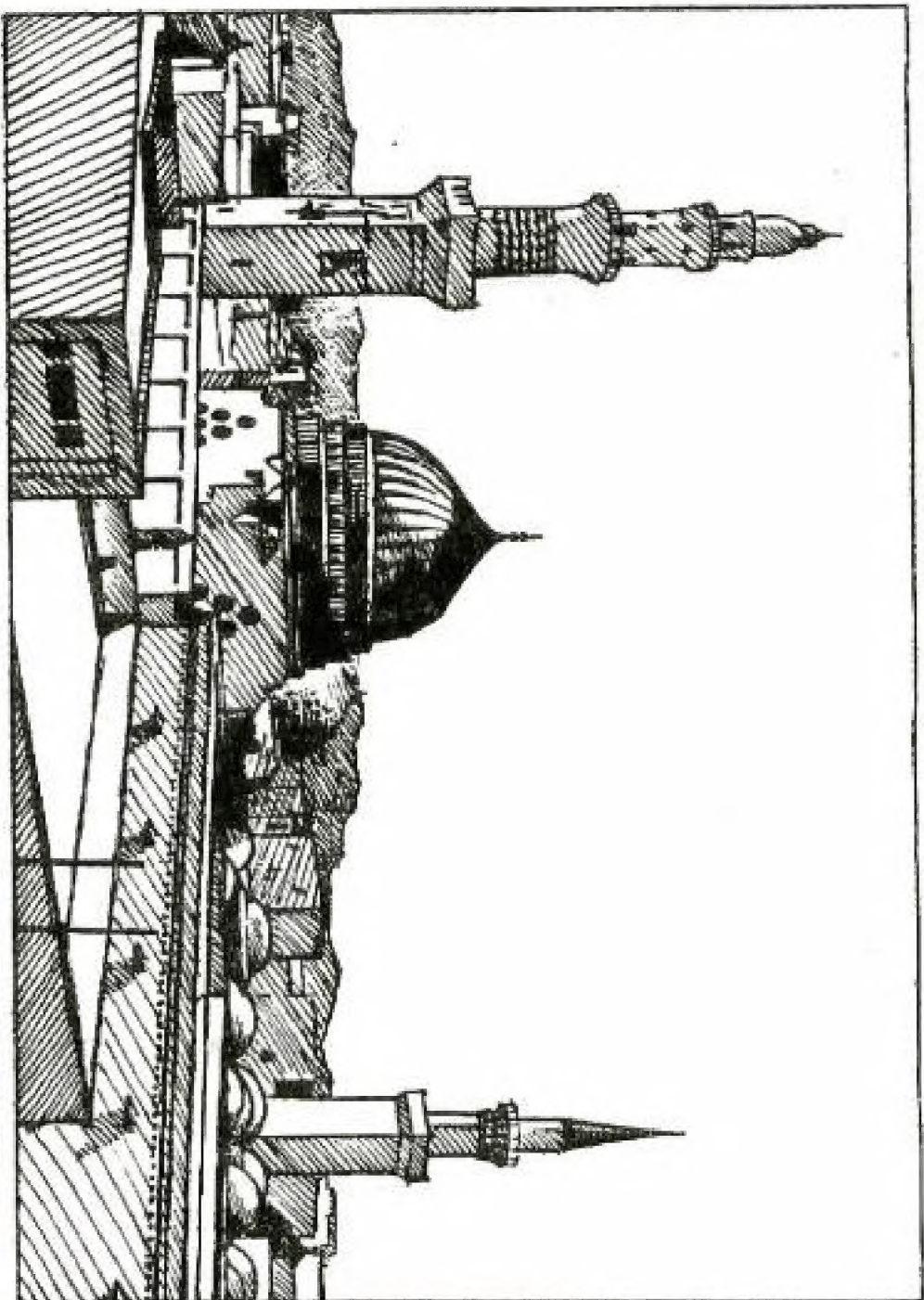
فَكَانَ يَكْتَفِي مِنَ الطَّعَامِ بِالْبَلَحِ
وَالْمَاءِ وَخُبْزِ الشَّعِيرِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ
(سَرِيرِ) مِنَ الْحَرِيرِ ، بَلْ يَنَامُ عَلَى
الْحَصِيرِ ، وَيُعْطَى الْيَتَامَى وَالْمُحْتَاجِينَ كُلَّ

مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَالِ . كَانَ يُفَكِّرُ فِي غَيْرِهِ
وَيَنْسَى نَفْسَهُ . فَكَانَ مَثَلًا عَالِيًا لِلْقَنَاعَةِ
وَالزُّهْدِ . فِي يَدِهِ خَزِينَةُ الْمَالِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ
وَمَعَ هَذَا قَدْ فَضَّلَ إعْطَاءَ الْفُقَرَاءِ ، وَعَاشَ
كَمَا يَعِيشُونَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ زَارَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ ، فَوَجَدَهُ نَائِمًا عَلَى
حَصِيرٍ خَشِنٍ ، وَقَدْ أَثَّرَ الْحَصِيرُ فِي
جَنْبِهِ ، وَوَجَدَ عَلَيْهِ ثَوْبًا لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ،
وَرَأَى مِقْدَارًا صَغِيرًا مِنَ الشَّعِيرِ فِي نَاحِيَةِ

مِنَ الْحُجْرَةِ، فَتَأَثَّرَ عُمَرُ مِمَّا رَأَاهُ ، وَنَزَلَتْ
الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ . فَقَالَ الرَّسُولُ : مَا
(الَّذِي) يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟

فَقَالَ عُمَرُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَمَا لِي لَا
أَبْكِي ؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ ،
وَلَيْسَ عَلَيْكَ غَيْرُ ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، وَلَا أَرَى
فِي هَذِهِ الْحُجْرَةِ إِلَّا مِقْدَارًا قَلِيلًا مِنْ
الشَّعِيرِ . وَذَلِكَ كِسْرَى (مَلِكُ الْفَرَسِ) ،
وَذَلِكَ قَيْصَرُ (مَلِكُ الرُّومِ) يَعِيشَانِ فِي
الثَّمَارِ وَالنَّعِيمِ ، وَالثِّيَابِ الْغَالِيَةِ ، وَأَنْتَ



القبلة الخضراء والمئذنة الرئيسية

نَبِيُّ اللَّهِ الْمُخْتَارُ .

فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ
لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا ؟

وَفِي يَوْمٍ اشْتَكَّتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ بِنْتُ
الرَّسُولِ ، وَزَوْجَةُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ،
مِنْ تَعَبِ يَدَيْهَا مِنْ إِدَارَةِ الرَّحَى ، فَبَلَغَهَا
أَنَّ النَّبِيَّ جَاءَهُ بَعْضُ الْأَسْرَى ، فَذَهَبَتْ
إِلَى أَبِيهَا تَطْلُبُ مِنْهُ خَادِمًا يُسَاعِدُهَا فِي
أَعْمَالِ الْبَيْتِ ، فَلَمْ تَجِدْ أَبَاهَا ، فَذَكَرَتْ

ذَلِكَ لِلسَّيِّدَةِ عَائِشَةَ زَوْجَةِ النَّبِيِّ ، فَجَاءَ
النَّبِيُّ ، فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ لَهُ ذَلِكَ . فَذَهَبَ
الرَّسُولُ إِلَى بَيْتِ فَاطِمَةَ . وَبَدَلًا مِنْ أَنْ
يُرْسَلَ إِلَى ابْنَتِهِ خَادِمًا ، نَصَحَ لَهَا وَلِابْنِ
عَمِّهِ أَنْ يَقُولَا قَبْلَ النَّوْمِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا
وَثَلَاثِينَ مَرَّةً ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ،
وَسُبْحَانَ اللَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ . فَهَذِهِ الْعِبَادَةُ
لِلَّهِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَبَاهُ .

الرَّسُولُ وَالْجُوعُ :

وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ الرَّسُولُ الْكَامِلُ مِنْ
الْمَسْجِدِ ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ،

فَسَأَلَهُمَا عَنْ سَبَبِ خُرُوجِهِمَا ، فَقَالَا :
أَخْرَجَنَا الْجُوعُ .

قَالَ : وَمَا أَخْرَجَنِي إِلَّا الْجُوعُ .
فَذَهَبُوا إِلَى أَبِي الْهَيْثَمِ ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِشَعِيرٍ ،
وَقَامَ إِلَى شَاةٍ فَذَبَحَهَا . وَقَدَّمَ لَهُمْ مَاءً
عَذْبًا مُعَلَّقًا عِنْدَهُ فِي نَخْلَةٍ . ثُمَّ أَتَوْا
بِالطَّعَامِ ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا ، فَقَالَ
الْمُصْطَفَى : (سَنَسْأَلُ) عَنْ نَعِيمِ هَذَا الْيَوْمِ .
وَهَذِهِ بَعْضُ الصُّوَرِ مِنْ زُهْدِ مُحَمَّدٍ
الْكَامِلِ ، وَقِنَاعَتِهِ .